الصراع البريطاني الأميركي في فترة الخمسينات من القرن الماضي وتأثيره على تاريخ سورية وتاريخ الحزب

هذا الموضوع أثير في الكثير من المراجع وكُتِب عنه الكثير في عدة أماكن وعلى فترات زمنية متعددة، لكنه أثير مجدداً في بعض التعليقات على كتابي "الاسباب والعوامل الحزبية الداخلية في تاريخ إستشهاد سعاده". وأكثر ما أثاره هو الرفيق ميلاد السبعلي الذي نشر مقالة من أربعة أجزاء بتاريخ 11 تموز 2019 تناولت هذا الموضوع تحديداً .

وكان سعاده نفسه قد كتب مقالة بعنوان "ناحية من الحرب السياسية بعد الحرب" بتاريخ 15/5/1944 تكلم فيها عن "احتكاك وتصادم أهداف وتضارب مصالح" بين البريطانيين والأميركيين. وأيضاً كان هذا الموضوع من المواضيع الساخنة التي كانت الصحف اللبنانية تتكلم عنها في نهاية أربعينات القرن الماضي، ما حدى بالسفير البريطاني في بيروت لأن يضمنها أحد تقاريره لوزارة الخارجية البريطانية، كما سيجيء.

إن أول ما يجب الانتباه اليه هو أن"الصراع الأميركي البريطاني الصامت" في بلادنا السورية وفي منطقتنا العربية لم يكن صراعًا بين عدوين بل تنافساً بين حليفين متفقين حول السياسة الدولية التي يتبعانها بعد انتصارهما معًا في الحرب. وهذه السياسة الدولية المتوافق عليها هي ذات أضلع ثلاثة: الاستعمار لأهداف أمنية واقتصادية، ثم محاربة الشيوعية، ثم حماية اسرائيل. لذلك فإن كل "احتكاك أو تناقض أو صراع" حول مواضيع جانبية أخرى هو إحتكاك وتناقض وصراع ثانوي متوقّع دائمًا ولا يجب البناء عليه في قراءة التاريخ عمومًا وتاريخ سورية والحزب خصوصًا. كذلك، يجب ألّا يجعلنا ذلك نبني على هذا "الصراع" ونكبّره ونجعله قاعدة نفسّر عليه أحداث بلادنا وتاريخها. وهذه هي مطالعتي:

لقد نوهت في كتابي "الاسباب والعوامل الحزبية الداخلية في تاريخ إستشهاد سعاده" مرات عديدة وعلى امتداد عشرات الصفحات ابتداءً من الصفحة 333، عن صراع المصالح الاجنبية في سورية بعد الحرب وخاصة صراع المصالح الفرنسية البريطانية، وليس الأميركية البريطانية فقط، وأبديت حرصي الشديد وتنويهي المتكرر بأننا "كي نفهم الأحداث الحزبية والاتجاه السياسي الذي كان مركز الحزب في الشام يتحرك ضمنه، يجب فهم الاحداث العامة والسياسة العامة في الشام وعلاقة الحزب بها. فمثلاً، نحن لا يمكننا فهم البيان السياسي الذي أذاعه الحزب قبيل مقتل المالكي سنة 1955، ولا فهم مضمون رسائل الشرابي "الاميركية" والموقف الحزبي الحقيقي منها، قبل معرفة وفهم الحد الأدنى من تفاصيل الوضع السياسي العام الذي كان مخيماً على سورية، ومواقف مختلف القوى السياسية السورية ومكانها من المحاور والقوى العالمية التي كانت تتجاذب بلادنا وتتصارع عليها، وحلف بغداد مثل على ذلك".

وأيضاً صفحة 346: "... هذا ما يظهر على سطح الاحداث السياسية، أما في العمق فكانت السياسة

الاميركية – الانكليزية تحرك السياسيين المحليين الواقعين تحت تأثيرها ونفوذها، على تناقضهم و تناقض مصالحهم الذاتية، وتتلاعب بهم وتبدّلهم تكتيكياً وتراقب وتترصد توزع القوى المحلية واتجاهاتها، وهي على أبواب مشروع استراتيجي كبير بعد سنوات قليلة هو حلف بغداد البريطاني وشقيقه مشروع ايزنهاور الاميركي".

وفي الصفحة 185 قلت: "نحن في سنة 1949 والتنافس البريطاني – الأميركي على النفوذ عندنا على أشده، وهو تنافس بين الامبراطورية الانكليزية المتخمة والمتعبة من تخمتها، والولايات المتحدة الاميركية الصاعدة بقوة و لتي تزداد قوة وغنى والطامحة لتحل محل البريطانيين في سورية وفي العالم... إلا أن هذا التنافس لم يأخذ طابع الصدام والتناقض بل كان اشبه ما يكون بالانتقال السلس والسلمي للسيطرة على العالم. وكان سعاده قد كتب حينذاك ما يشير الى هذا الموضوع (مقال – ناحية من الحرب السياسية بعد الحرب). وأذا عدنا الى تقرير السفارة البريطانية لشهر حزيران من العام 1949 نجد أيضاً ما يشير الى هذا الأمر كالتالي: "زار السير وليم سترانغ (بريطاني) بيروت من 9 الى 12 حزيران وقابل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الخارجية، وكذلك زار السيد سام كوبر (أميركي) مساعد معهد الشرق الاوسط في وزارة الخارجية. الصحف اللبنانية لم تصدق أنها مصادفة وحسبت ذلك تنافساً أميركيًا بريطانيًا" (مطانيوس يوسف ص 681). هكذا كانت البعثة الدبلوماسية البريطانية في بيروت، وفي مراسلاتها مع وزارة الخارجية في لندن، تتهم الصحف البيروتية بالمبالغة عندما كانت تتكلم عن "تنافس" أميركي بريطاني.

كتب سعاده مقالته في جريدة الزوبعة قبل نهاية الحرب وقبل اتضاح أهداف الدول المنتصرة في ما خص سورية، وقبل حصول التفاهم الأميركي البريطاني حول المسائل الاستراتيجية الرئيسة في بلادنا. وقد كتب فيها عمّا سمّاه "احتكاك وحرب سياسية وتصادم اهداف وتضارب مصالح"، لكن فقط في "قضايا استغلال آبار النفط في سورية وخليج العجم والعربة وإيران"، وتابع سعاده قائلاً: "ثم ظهر تصادم آخر بين مصالح بريطانيا وأميركا في قضايا المسالك الجوية ومحطات الطيران المدني والتجاري." ولم يشر سعاده في مقالته تلك إلى أي مواضيع تتعلّق بصراع أميركي بريطاني استراتيجي كبير على سورية في ما خص الخطوط العريضة الثلاثة التي ذكرناها في مطلع هذا المقال وهي: الاستعمار لأهداف اقتصادية وأمنية ثم محاربة الشيوعية ثم حماية اسرائيل.

في سلسلة الانقلابات العسكرية منذ انقلاب حسني الزعيم الى إنقلاب سامي الحناوي الى انقلاب أديب الشيشكلي الأول ثم الثاني، لم نجد لا حرب سياسية ولا تناقض أو تصادم لا كبير ولا صغير بين السياستين البريطانية والاميركية.

لم نجد في كل الأحداث الرئيسة في سورية ما يشير الى أي أشتباك سياسي كبير أو أية "أزمة علاقات" أو أي خلاف بين السياستين البريطانية والاميركية حول أي مسألة استراتيجية في سورية بعد أنتهاء الحرب العالمية الثانية منتصف أربعينات القرن الماضي صعوداً الى مرحلة الخمسينات وما بعدها، وهذا ما جعل بعض الكتّاب والمؤرخين يسمونه الصراع الصامت.

أما مسالة العدوان الثلاثي الاسرائيلي البريطاني الفرنسي على مصر سنة 1956، هذا العدوان الذي عارضته الولايات المتحدة الاميركية وأدى تدخلها "السياسي" الى وقفه وإلغاء نتائجه، فقد تم دون إحداث أشتباك لا عسكري ولا سياسي أو دبلوماسي بين "الحليفين" البريطاني والأميركي. إن الطريقة السهلة التي

تم فيها التدخل الاميركي ضد هذا العدوان، تؤكد ما ذهبنا إليه من أن لا صراع إستراتيجي كبير بين البريطانيين والاميركان، بل تسلم وتسليم سلس للسلطة والنفوذ في العالم. إن كل ما في الأمر هو تنافس للحفاظ على أكبر قدر من المصالح والنفوذ في الشؤون المحلية غير الاستراتيجية، وهذا شيء طبيعي ومتوقع دائماً بين الدول الحليفة. وهذا التنافس المحلي المحدود لم يأخذ طابع التناقض أو الصدام حتى في أدنى مستوياته.

في الشام، وفي سلسلة الانقلابات العسكرية منذ انقلاب حسني الزعيم الى إنقلاب سامي الحناوي الى انقلاب أديب الشيشكلي الأول ثم الثاني، فإننا في كل هذا التاريخ وأحداثه وتفاصيلها التي امتدت من سنة 1949 الى سنة 1955 لم نجد لا حرب سياسية ولا تناقض أو تصادم لا كبير ولا صغير بين السياستين البريطانية والاميركية.

لقد تحدث كثيرون عن صراع وتناقض حول موقف كل من البريطانيين والأميركيين من مسألة الوحدة العراقية السورية التي كانت مطروحة بقوة في ذلك الوقت، وعن المحور العراقي الأردني الهاشمي الداعم للوحدة والمدعوم من البريطانيين، في مقابل المحور المصري السعودي المعارض لها والمدعوم من الاميركيين، وعن المحاور السورية المحلية المتصارعة بين الاثنين. حتى أن الدكتور سبعلي يذهب للقول بأن انقلاب الحناوي على حسني الزعيم هو انقلاب بريطاني، ودليله هو وقوف الحناوي منذ اللحظة الأولى الى جانب الوحدة العراقية السورية المدعومة من الانكليز. وهذا الاستنتاج يدحضه سرعة عودة الشيشكلي، المدعوم أميركياً، إلى الجيش في اليوم التالي لانقلاب الحناوي، ثم استلامه قيادته وهو المعارض العنيف للوحدة العراقية السورية. فالحناوي إذاً ليس نتيجة صراع بريطاني اميركي بل إن انقلابه هو صناعة "غربية" لخدمة السياسة البريطانية الأميركية الواحدة في سورية. وكان السبعلي قد قال أيضًا في مقالته أن إنقلاب حسني الزعيم بدأ بريطانيًا مؤيداً للمحور الهاشمي البريطاني ثم تغيّر نتيجة الصراع البريطاني الأميركي وصار أميركياً مؤيداً للمحور المصري السعودي، وهذا القول تدحضه حقيقة أن انقلاب حسني الزعيم كان الأميركيون، من الأساس، من مهندسيه الرئيسيين بقيادة الميجر ميد الملحق العسكري الأميركي في دمشق، حتى أن "مايلز كوبلاند" وهوأحد رجالات المخابرات الاميركية العاملين تحت إمرة الميجر ميد، قد أفاض في كتابه "اللاعب واللعبة" (1996 دار الحمراء ص 78) في كيفية توظيف حسني الزعيم واستعماله لدرجة قوله إنه طاف بحسني الزعيم على جميع مراكز الحكومة التي يجب أن يحتلها الجيش يوم الانقلاب.(صفحة 90).

إن انقلاب الحناوي على حسني الزعيم لم يكن إذاً نتيجة الصراع البريطاني الأميركي، بل الصحيح هو أن توافقًا وتنسيقًا وتوزيع أدوار كان قائمًا بين البريطانيين والأميركيين، بقيادة هؤلاء الأخيرين. وما اختلاف وتصادم رجال السياسة السوريين آنذاك وانقلابهم على بعضهم إلا نتيجة كونهم بيادق تحركها السياسة البريطانية الاميركية الواحدة فتزيح ذاك لصالح هذا حسب الحاجة. أما أن يزداد النفوذ الاميركي في عهد الشيشكلي وتزداد المساعدات الأميركية العسكرية والمدنية في عهده فذلك نتيجة طبيعية لحلول الأميركيين محل الانجليز في ما سمّيناه "الانتقال السلس والسلمي للسلطة والنفوذ في العالم" بينهما. وما يؤكد وحدة السياسة البريطانية الأميركية في سورية وتكريسها لخدمة إسرائيل وتثبيت وجودها وحمايتها هو انخراط الشيشكلي في مفاوضات وتسويات مع اسرائيل برعاية أميركية وتأييد بريطاني. وقد أورد الدكتور السبعلي أمثلة عن ذلك عندما قال: "في شهر كانون الثاني 1953 وخلال محادثات جرت بين السفير الأميركي في دمشق جيمس موس وبين الرئيس فوزي سلو (رجل الشيشكلي الاول) اعترف سلو بحق اسرائيل بالوجود

وتنبأ بالسلام معها. وكان الشيشكلي متحمساً لإجراء حوار مع إسرائيل كي يتم تقليص التوتر من جراء الاشتباكات الحدودية المتكررة إلا أنه لم يكن راغبًا بخوض مخاطرة إجراء مفاوضات لعقد معاهدة سلام معها." (الحرب السرية في الشرق الاوسط. ص 118). إن موقف الشيشكلي وسياسته هذه لم تكن جديدة وليس فيها أي تبدّل عن مواقفه "السرّية" السابقة حتى في عهد حسني الزعيم وقبل إعدام سعاده، وكان الشيشكلي يعتبر قومياً اجتماعياً. وقد بينت في كتابي كل مواقفه المشبوهة وكتمانه على سعاده أمر الاجتماع السري بين حسني وشاريت في بلودان بتاريخ 15 حزيران سنة 1949.

إن الخطاب السياسي في الحزب السوري القومي الاجتماعي في حقبة الخمسينات، وتعابيره وشعاراته، كان يشير إلى "الغرب" بشكل عام على أساس أن الغرب هو وحدة سياسة ووحدة موقف سياسي منا ومن بلادنا السورية.

هذا عن التأثير المزعوم للصراع البريطاني الأميركي في تاريخ سورية بشكل عام. أما عن تأثيره في تاريخ الحزب بشكل خاص فليس صحيحاً تصنيف عبد المسيح أنه مع السياسة البريطانية في مقابل تصنيف خصومه في المجلس الاعلى أنهم مع السياسة الأميركية. إن القول بتأثير الصراع البريطاني الانجليزي على تاريخ الحزب والصراع بين عبد المسيح والمجلس الأعلى، يفترض القول بأن عبد المسيح بريطاني في مقابل أن المجلس الأعلى أميركي، وهذا غير صحيح. فلا عبد المسيح كان بريطاني الهوى أو عميلاً بريطانيًا ضد السياسة الأميركية ولا المجلس الأعلى كان أميركي الهوى أو عميلاً اميركيًاً ضد السياسة البريطانية. بل أن الصحيح المثبت في وثائق الحزب عن تلك الفترة، خاصةً البيان السياسي سنة 1955، هو أن توافقًا تامًا في السياسة الخارجية لدى الحزب كان يجمع عبد المسيح وخصومه معًا، وهو توافق حول ضرورة "التوجه نحو الغرب"، والغرب يعني الغرب البريطاني الأميركي في سياسته الواحدة. (الجميع اليوم في الحزب يدينون تلك السياسة المنحرفة عن نهج سعاده القومي السيادي المستقل عن صراع المحاور في العالم). إن الصراع في الحزب لم يكن صراعاً بريطانيًا أميركيًا بل صراعًا داخليًا على السلطة سببه النزعة الفردية وعدم الاستعداد للتضحية في سبيل وحدة الحزب، أي وحدتنا التي قال سعاده عنها أننا يجب أن نضحي في سبيلها بكل ما تطلبه منا التضحية (الخطاب المنهجي الأول). وكان سعاده قد نبّه الى أن النزعة الفردية هي أخطر من الاحتلال الأجنبي.

إن الخطاب السياسي في الحزب السوري القومي الاجتماعي في حقبة الخمسينات، وتعابيره وشعاراته، كان يشير إلى "الغرب" بشكل عام على أساس أن الغرب هو وحدة سياسة ووحدة موقف سياسي منا ومن بلادنا السورية. وإذا راجعنا تعابير البيان السياسي الذي أصدره الحزب سنة 1955، قبل مقتل المالكي باسبوع واحد، سنجده يتكلم عن الغرب والعلاقة مع الغرب كجبهة سياسية واحدة، وليس مع الأميركيين أو البريطانيين بشكل منفصل ومستقل، مثل: "كان علينا أن نعلن التوجه نحو الغرب لاستخلاص حقنا منه. اتصالنا به يجب أن يكون مصحوباً بشروطنا القومية للوقوف معه..." (رسالة إلى منير حيدر ص 96). وهذا الخطاب السياسي كان خطاب عبد المسيح وخصومه في المجلس الأعلى على السواء. فالبيان أنجزه رئيس الحزب جورج عبد المسيح وكتبه عميد الإذاعة عصام المحايري ودرسه ووافق عليه وأقرّه المجلس الأعلى. تبعاً لذلك فإننا نجزم أن كل كلام عن صراع في الحزب بين "جماعة

الأميركين وجماعة الانجليز" هو كلام غير صحيح ولا ينطبق على حقيقة الواقع الحزبي في ذلك الوقت الذي كان صراعًا على السلطة في الحزب بين عبد المسيح وخصومه لا أكثر ولا أقل.

أما أن يكون الانجليز، وليس الأميركيون، هم من تعاطوا مباشرة في موضوع تجنيد عميلهم أستاذ اللغة الانجليزية في مدرسة الفريكة التي كان يديرها عبد المسيح، وتدخّل ذلك العميل لسحب العم من مطبعة الجميزة قبيل حادث التحرش الذي كان فاتحة وبداية خطة القضاء على سعاده، وأن يكون الانجليز هم من استبقوا تطور الاحداث وتوقعوا دوراً قياديًا في الحزب لعبد المسيح (راجع وثيقة السفارة البريطانية في بيروت وتقرير شهر ايلول 49)، وأما أن يكون الانجليز هم وراء هرب المحايري وقنيزح وصعب ومحسن الى الأردن واستضافتهم فوراً عند الملك عبدالله، الانجليزي، وتسمية عبد المسيح من هناك لقيادة الحزب، فإن كل ذلك لأنه كان للانجليز دور ومكان ونفوذ منذ ما قبل انتهاء الحرب، وهذا الدور والمكان والنفوذ لم يكن متعارضاً مع السياسة الأميركية بل متوافقاً معها في موقف واحد وسياسة واحدة، وقد بيّنا كيف أن خطة القضاء على سعاده كان يتم تنفيذها بقيادة الملحق العسكري الأميركي في دمشق الميجر ميد.